بَين العِلم والأَدب
عِنْدنا: بَرْزَخٌ لا يبغيَان*

للدّكتور أحْمد سَليمْ سِعيدان

سادتي الكرام!

السلام عليكم ورحمة الله.

قدري أن يكون أول حديث لي إليكم شكوى. ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع. ولكن شكواي لا للمواساة والتوجع، بل هي دعوة لتأمل وتفكر يفضي إلى عمل جازم. إنها الشكوى مما أراه عندنا من قطيعة بين العلم والأدب تفضي إلى ما نعاني منه من أزمة فكرية، وجمود ذهني في عالم متطور متفجر يطلع كل ساعة بجديد، في كل من مجالات الفن والأدب والعلم والتكنولوجيا، في جميع دروب الحياة.

والعلم والأدب ابنان توأمان للفكر الإنساني، طبيعتهما وطبعهما أن يكونا متضامنين متكافلين، يسند كل منهما أخاه ويغذيه، سلاحهما الكلمة المكتوبة أو المسموعة، وهدفهما العمل من أجل مستقبل أفضل، لنا وللإنسانية جمعاء.

وقبل أن أشرع بعرض ما أشكو منه، أستأذنكم أيها السادة أن أعرض أمامكم صورة من تضافر العلم والأدب في العالم المتقدم:

غني عن القول إن علوم اليوم هي صناعة غربية. أجل إن جذورها عربية وإغريقية وبابلية وفرعونية؛ ولكن جذوعها وفروعها وأغصانها وأوراقها وثمارها – كلها غربية– وهي متطورة آخذه بالعلو والنماء؛ ومفاتيح تطورها

* ألقيت هذه الكلمة في المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة يوم ١٩٩٠/٣/٤م.

كلها بيد الغرب. وهي كلما ازدادت نمواً زادت بعداً عن جذورها، كشجرة تفاح تركب على فروعها شتى أنواع الفواكه، فتؤتي ثماراً غير تفاحها الأصيل.

وعندما كان الغرب يتلقى علومه من الكتب العربية كانت لغة الكتابة عنده لاتينية، وكان المتعلمون فيه هم القلة التي تتقنها، وكان أكثرهم، بل كلهم، رجال دين. ثم تنبه الغرب إلى ضرورة إحياء لغاته البيتية، وجعلها لغات كتابة. وفي غضون ذلك كان إبداعه الفكري الذاتي قد بدأت بواكيره، فقامت نهضته الفكرية، ثقافية كانت أو اجتماعية، أو سياسية، أو أدبية- والعلم ركن هام من أركانها. فكان أن مضت لغته المكتوبة في تطورها مع تطور العلم. حتى جاءت الآداب الغربية مجبولةً بالعلم، وهو الركن الأساسي من أركانها، والملهم الأكبر في تنويع إنتاجها وتطويره، شعراً كان أو قصة، أو فن رسم أو موسيقى. العلم في الغرب طابع الحياة اليومية، يرضعه الطفل مع حليب أمه، ويتلقاه في البيت والشارع، والملعب والملهى، والصحافة اليومية، بله المدرسة. في الغرب نجد رجال القلم والأدب، والصحافة والسياسة، والتاجر في متجره، والصانع في مصنعه والفلاح في مزرعته، ونجد سائق التكسي وربة البيت – نجد كلّاً من هؤلاء، وله من العلم المعاصر نصيب، يجاريه في تطوره وتفجره؛ يتلقاه في الكتب المبسطة، والصحف والنشرات، وفي الإذاعة والتلفزة بعبارات خبراء عارفين يفهمون ما يقولون. حتى أحدث الابتكارات العلمية والتكنولوجية نجد الحديث عنها، وعما ينتظر من أثر لها، على لسان الخاص والعام. إن من قيم الحياة في العالم المعاصر أن المرء المثقف ينبغي أن يكون ملماً بما يجري في حقول العلوم من مستجدات نظرية وتطبيقية. أضف إلى ذلك أن العالم المتقدم يعيش عصر صراع هو حرب حياة أو موت، أداته النافذة صاحبة الغلبة المطلقة هي العلم.

منذ الأربعينيات من هذا القرن صرنا نعيش عصر تفجر علمي رهيب،

المخفي فيه أشد هولاً من الظاهر المرئي، ولكن العيون اليقظة والأذهان المتفتحة لا تلبث أن تكشف كل خفي، وتحاربه بما هو أكثر خفاء. ليس علم اليوم كمالياً من الكماليات، وإنما هو، كالماء والهواء والغذاء، ضرورة من ضرورات الحياة، والسلاح الأقوى من أسلحة الصراع. لا يغير من الصورة ما صار يبدو اليوم من انفراج بين أكبر قوتين في العالم.

والدول المتقدمة همها أن تقيم تفاعلاً قوياً مستديماً بين العلم والناس والعلم والأدب والعلم والإنسانيات.

فعلى الصعيد الشعبي: ما أن يتم إنجاز علمي ذو شأن، مما قد يكون له أثر في حياة الناس، مثل كشف طبي أو صناعي أو زراعي، حتى تتبرى وسائل الإعلام لنشره، بأقلام خبراء علميين تربويين، في الإذاعة والصحافة والتلفاز، ثم تصدر الكتب العلمية المبسطة تزيد البحث فيه تفصيلاً، بطبعات شعبية رخيصة الثمن.

وإذا ظهر كتاب قيم بلغة أجنبية، مما قد يفيد الجماهير، فلا يلبث أن يترجم وينشر بطبعات رخيصة. وقد يكون النشر سلاحاً ذا حدين، فتظهر النشرات المفيدة إلى جانب كتب اللهو والمجون. ولكن النشر في العالم المتقدم حر، والقارئ هو الذي يختار ما يرضيه. والمربون يعرفون أن بعض الكتب تضر ولا تنفع، ولكنهم يتركون الخيار للقارئ كي يبقى الكتاب ذا جاذبية خاصة، وَكَي لا يؤدي حجب بعض الكتب إلى البحث عنها خلسة.

وعلى صعيد الإنتاج الأدبي: نجد الأديب ذا رؤية علمية، يدرك تجاهات علوم عصره، وله في قرارة نفسه فلسفة علمية تقوّم الحاضر وتشارف المستقبل، فهو في ما يبدع من أدب مكتوب أو مسموع يحلق بخياله فيستطلع ما هو جارٍ وما قد يجري في المستقبل القريب أو البعيد. وبذلك يوحي إلى زميله العلمي بأفكار جديدة، ويدفعه إلى مزيد من البحث

والاستقصاء، حتى ليجعل من خيال الأديب بالأَمس وأوهامه بعضاً من حقائق اليوم وعلومه. فيدفع الجديد من حقائق اليوم أدب الغد إلى جديد من الخيال وجديد من الرؤى والتطلعات.

هكذا يتضافر الأديب والعالم المتقدم، كل منهما يسند الآخر ويرفده. ومع تطور العلم والتكنولوجيا يتطور الأدب والفن، حتى لتقام بين حين وحين معارض لآداب الخمسينيات والستينيات وفنونها، فتقارن بما كان قبلها وما جد من بعدها، وما أبعد ما بين هذا وذاك.

حتى اللغة يعتريها ما يعتري العلم والأدب من تطور. إن اللغة أداة العلم والأدب تتسع إذا اتسعت آفاقهما وتضيق إذا ضاقت – إنها لغة الأمة، ولها من ثم كرامتها وقداستها. ولكنها أيضاً لغة حية، فهي من ثم متطورة قابلة للاتساع والنماء. إنها بحق مرآة حياة الأمة، تعزُّ إذا عزت الأمة، وتهون إذا هانت.

إن العلم المتجدد يلهم الأدباء بقدر ما يلهم العلماء، فينوعون إنجازهم ويزيدونه جاذبية، مستندين إلى خلفية علمية صلبة. وهو قد يلهم غير المتخصصين بأكثر مما يلهم المتخصصين. فمن قبل أن يبتكر العلم سفن الفضاء وينزل العلماء أرض القمر، وضع الأدب قصصاً تصف مثل هذه السفن وتتكلم عن رجال الفضاء. خيال أدباء اليوم يجعله علم الغد حقيقة، وخيال الأدباء في العالم المتقدم يسبق إنجاز العلماء ويلهمهم.

والمواطن في العالم المتقدم يعتز بحاضره لأنه يمده بالثقة بالنفس، ويدفعه إلى صدق الانتماء، فيعمل على تحقيق أمجاد تضاف إلى ما حقق آباؤه وما يحقق زملاؤه. أما ماضيه فينظر إليه باعتباره صفحات مطوية في سجل حياته، إن يكن فيها بدائية قاتمة وسطور معتمة، فتلك مراحل تجاوزها، وبقي الماضي، بخيره وشره، تراثاً يحافظ عليه ويصونه لأن فيه جذوره ومسببات حاضره وأمجاده. إن الفرق الحضاري بين ماضيه وحاضره يزيده

ثقة بالنفس، وأملاً بمستقبل أفضل، وتطلعاً إلى تحقيق أمجاد تضيف اسمه إلى قائمة الخالدين – ما أكبر الفرق بين فكر المواطن في العالم المتقدم وفكر نظيره في العالم الثالث: ذاك يتطلع إلى مستقبل أكثر إشراقاً، وهذا يحنُّ إلى الماضي، ويتبرم بالحاضر، ويخشى المستقبل المجهول. كم أتمنى لو يتضافر العلم والأدب عندنا تضافرهما في الغرب.

وقد يحسن قبل أن ننتقل إلى وصف حال العلم والأدب في العالم العربي أن نلقي نظرة سريعة على العلم الغربي التخصصي على الصعيد العالمي، المعروض منه للعيان، ناهيك عن الخفي تحت ستار المجهودات العسكرية.

ففي المستويات الجامعية نجد في كل قسم من أقسام الكليات العلمية بحث يخصص كل ركن من أركانه لفرع من فروع البحث، ويشغل كل ركن أستاذ أو فريق من الأساتذة أصحاب التخصص الواحد، أو التخصصات المتقاربة، فيعملون بعد الفراغ من المحاضرات اليومية في بحوث يأملون من ورائها تحقيق إنجازات تحقق لهم ولجامعاتهم شيئاً من المجد أو بعضاً من الدخل. أو يعملون على إيجاد حلول لمشكلات محددة تعرضها المؤسسات الصناعية أو الزراعية أو التجارية، القائمة من حولهم. وهذه المؤسسات تعتمد لهم ولكلياتهم مبالغ سخية يتقاضون منها أجورهم، ويشترون بها ما يلزم من معدات، ويشغلون بها من يحتاجون إليهم من عمال ومساعدي بحث.

ومن المتخصصين الذين لا يعملون في الجامعات من يعملون خبراء أو مستشارين في الفعاليات الخاصة أو العامة، يساعدون في التخطيط أو التصحيح أو التطوير.

ومن المتخصصين من يهوون البحث والاستكشاف، فيعملون أفراداً أو جماعات، بجهودهم، لا لمطمع، ولكن بغية تأدية رسالة ما، قومية أو إنسانية. وقد

يقضون العمر كله لا يحققون جديداً سوى إرضاء نزعاتهم الخاصة، أو قد يصلون إلى اكتشاف أو ابتكار او تطوير يدر عليهم ما يرضيهم من سمعة مجزية، وقد يدر عليهم أو لا يدر ما يرضيهم من مال. هؤلاء هم الذين يتحقق على أيديهم مجد البلد وتقدم الحضارة الإنسانية. ولكن على أيديهم أيضاً يتحقق صنع السلاح المدمر الذي قد يقضي في لحظة جنون على أكثر ما صنعه الفكر الإنساني في قرون طويلة. تلك هي الأسس التي بني عليها العلم المعاصر المتفجر.

وعليها بني أيضاً صرح الآداب والفنون المعاصرة، وما فيها من تنوع وإبداع، يغمرها جميعاً منهجية علمية تعلم الفرد أنه سيد نفسه، قادر على أن يبتكر، مدعو إلى أن يخطط وينفذ، واثقاً من نفسه، مؤمناً بربه، يعمل بموضوعيه وأمانة علمية، يظلله تحكيم العقل ومقاييس المنهج العلمي المستند إلى برهان تجريبي عقلي – عالماً كان أو أديباً أو فناناً، طبيباً كان أو مهندساً أو تاجراً أو صانعاً أو زارعاً. كلهم في النهج العلمي والأدبي سواء.

فإذا جئنا إلى وضع العلم والأدب في العالم العربي، فإني أخشى إذا أفضت في وصف صورتهما الهزيلة أن أشعر بالإحباط تلك الفئة القليلة من الأدباء المبدعين والعلماء ممن حققوا إنجازات ذات قيمة عالمية في مجال الابتكار أو الاكتشاف أو التطوير. ولكن مهما يكن عدد هؤلاء القلة، فإن عالماً عدد أبنائه يربو على مئة مليون، لا يكون حاله مرضياً أن يقل كل من الأدباء والعلماء فيه عن مليون، منهم ألف على الأقل يعملون على مستوى عالمي ويساهمون في صنع الحضارة الإنسانية، ويمدون للعرب جسوراً فكرية مع العالم المتقدم.

غني عن البيان أن تربتنا وأجواءنا الفكرية والثقافية والإقليمية والطائفية تحتاج إلى تطوير كبير كي تصبح صالحة لنمو الإنتاج الأدبي والإنجاز العلمي على مستوى عالمي، أو صالحة للسير مع التيار الفكري العالمي.

لقد قامت النهضة الغربية، في أواخر القرون الوسطى، في نور الفكر العربي الإسلامي الذي أقامه أجدادنا في رحاب الحضارة الإسلامية. ولكن كان قدرنا نحن أن تقوم الحضارة الغربية المعاصرة ونحن نغط في سبات عميق وعندما شرعنا ننهض من سباتنا، في أواخر القرن التاسع عشر، ألفينا أننا غرباء في العالم المعاصر، فلا علمه ساهمنا في صنعه، ولا اجواؤنا الحاضرة تكيفت معه، ولا تربيتنا الذهنية تلائمه، حتى ولا لغتنا الموروثة قد اتسعت لاستيعابه. لقد تطور الفكر العالمي وتقدم واتسع ونحن بمعزل عنه.

سيصدم قولي هذا أدباء يتغنون بلغتنا الجميلة، وعلميين يتباهون بما أنجز الآباء. وماذا يجدي التغني والتباهي إن لم نعمد إلى تطوير مناهج حياتنا وتفكيرنا وأساليب تدريس لغتنا، إلى أن تتلاءم مع طابع حياة اليوم المتطورة السريعة التطور، الخاضعة للتطوير. إليكم مثلاً واحداً يبين كيف وقفنا جامدين في عالم سريع الحركة، التوقف فيه كالهبوط من شاهق. فعندما ابتكر الغرب الطباعة بحروف متحركة، كان ما يزال يتلقى علومه من كتب عربية، فقام الغرب بطباعة هذه الكتب العربية، أما نحن فقد مكثنا بعدها في الشرق ثلاثمئة سنة ننسخ باليد. وكانت أول مطبعة وردت على مصر تلك التي جاء بها نابليون في أواخر القرن الثامن عشر، عندها شرعنا نطبع كتباً طبعها الغرب من قبلنا بثلاثة قرون.

في العصور الإسلامية الأولى أعلى المسلمون صرح المنهج العلمي، بأن جعلوا الاختبار والمشاهدة ركناً من أركانه. لقد أدركوا أن التفكير جهد إنساني متطور يتغير بتغير الزمان والمكان، فنادوا بألا رأي لميت، لأن الماضين مهما أبدعوا فإن تفكيرهم وإبداعهم لزمان غير زماننا وأحوال غير أحوالنا. قالوا هم رجال ونحن رجال أدرى منهم بما يتلاءم مع أيامنا. لقد أوصوا بأن يقوم على رأس كل مئة سنة مجتهد يجدد ويطور، حسب مقتضيات العصر؛ فإن لم يقم مجتهد، وجب على المجتمعات الإسلامية أن تعمل على إيجاده، بالرعاية الحكيمة

والتربية الهادفة.

ولو امتثل اللاحقون لهذه التوصيات لتغير مسار التاريخ الإسلامي، بل تاريخ العالم بأسره. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. ولقد جرت الرياح، وما تزال تجري بما لا يشتهي دعاة تطوير الحياة الفكرية في عالمنا العربي، من أجل معالجة ما نعاني من سطحية وأزمة فكرية، تحت ربقة ستار حديدي اسمه المحافظة.

باسم المحافظة على القديم، وبدعوى أن آخر الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، تنكر أجدادنا للعلم باسم الدين، والدين مما يصنعون براء. واكتفى الأدباء بالتباري في المدح والهجاء، نفاقاً وبهتاناً، والأدب والفن مما يفعلون براء. وباسم الدين قيدت الحرية الفكرية، وأعلن الفقهاء الحرب على العلم، وقد كان الإسلام أقوى دعوة إليه. وكما أحرق الغلوُّ الأوروبي علماء في ظل محاكم التفتيش، أحرق الغلو العربي الكتب الفلسفة وأعدم أصحاب الرأي الحر، بدعاوى ظاهرها الحفاظ على الدين وباطنها التنافس على موائد الولاة.

هذا ما جرى في أواخر العصور الإسلامية قبيل انتقال القيادة الفكرية والسياسية إلى العالم الغربي. وفي غضون القرن التاسع عشر شرعنا نضيق وقد مثلت في أذهاننا ذكريات عصور ماجدة مضت، فأخذنا نتغنى بأمجاد مضت، من غير أن تحقق أمجاداً مستجدة، وليس من السهل تحقيقها في عالم يتطور بسرعة خاطفة، ويتفجر فيه العلم تفجراً فوق كل تصور، في حين أننا ما زلنا يمضي بنا الزمان وعيوننا إلى وراء، تحن إلى الماضي، وتتبرم بالحاضر، وتخشى المستقبل؛ ما زلنا ننظر إلى الغرب نظرة ريبة وخوف، نتحاشى أن نفيد من تجربته أو أن نتعمق أسباب ضعفنا وقوته.

إنني يا سادتي أعتز وأرفع رأسي عالياً بالشعر العربي، الوجداني منه

والقومي والإنساني، وأعتز وأرفع رأسي عالياً بآدابنا الحديثة ذات النزعة القومية والنزعة الإنسانية، وأعتز أيضاً وأرفع رأسي عالياً وأتباهى بكل عربي أنجز في البلاد المتقدمة إنجازاً متميزاً. ولكني أتألم حسرة عليه إذا لم يجد في بلده ما يمكنه من مثل هذا الإنجاز. إن ما أشكو لكم يا سادتي منه أن أجواءنا الفكرية هنا محافظة إلى حد يجعلها لا تتواءم مع تيار الحياة المتطور. إنها تقيم برزخاً بين الأدب والعلم يعرقل مسار كل منهما، ويجعلنا نجمد في وجه تيار فكري دافق لا يلوي على شيء.

ما نحتاج إليه كي نخرج من جمودنا الفكري منهجية علمية تضم تحت جناحيها أدباءنا وعلماءنا وكل مفكرينا على السواء، منهجية تدفعهم إلى التخطيط والتطوير، مؤمنين بالله، واثقين بقدرتهم العقلية، متطلعين إلى المساهمة مع المساهمين في بناء مستقبل أفضل يأخذ فيه العرب والعروبة مكانة قومية وإنسانية تليق بتاريخنا الحضاري المجيد.

غنيّ عن البيان أنني، على الرغم من تبرمي بالحاضر وما فيه من سطحية وأزمة فكرية، لأعتز كل الاعتزاز بما حققت أقطار عربية من انتصارات عسكرية وسياسية واقتصادية، ومن خطوات موفقة نحو الوحدة العربية، أمل كل مواطن شريف. في تقديري وحكمي الموضوعي أننا، أدباء ومتأدبين، ما تزال أفكارنا وخيالاتنا تهيم في الماضي القريب، يوم انقلب الفكر والأدب مجرد شكليات جوفاء ومحسنات لفظية يحليها سجع وجرس، ولا يدعمها فكر، وصار الشعر مديح نفاق وارتزاق، وهجاء سخف وبهتان، أما العلم عندنا فمن مآسيه أن مناهج التعليم ما تزال هي هي التي رسمها الاستعمار. وما طرأ عليها من تغيير إنما هو سطحي لا يمس الجذور، ولا يصل إلى حد الاجتهاد الحر والابتكار.

إن الجو والتربة بقيا في العالم الإسلامي، والعالم العربي بخاصة، على

مثل ما كانا عليه في أواخر العصور الوسطى: تفكير تقليدي مكرر معاد، وتعلم تلقيني يعتمد على الحفظ ويتنكر للاجتهاد، وأقوال وشعارات لا يسندها واقع ولا دليل، وتربة تتقبل الكلام المزوق الأجوف، ولا تعنى بالمضمون وترفض المنهج العلمي الموضوعي والمنطق العلمي الجريء.

وما العمل؟ أقول إن علينا، بالإضافة إلى تيسير نشر العلم بين العلميين والإنسانيين على السواء، خلق الجو المناسب والتربة المناسبة لأن ينمو العلم ويشيع ويصبح طابع حياتنا والموجه الفعال لتفكيرنا وتصوراتنا، وأن ينمو الأدب الحر المنبعث عن أصالة في التفكير ورؤية نافذة وعلم غزير.

ثمة مبادئ وحقاق وأفكار ينبغي أن تشيع بيننا وتجري في حياتنا كما يجري الدم في عروقنا، كي نحقق الجو والتربة اللازمين لتضافر العلم والأدب عندنا، كي نساير تيار الحياة المعاصرة ونمضي مع الركب بعزة وكرامة فاعلين لا منفعلين، خلاقين لا مقلدين ولا متطفلين. من هذه المبادئ والحقائق والأفكار:

١- **أن العلم هو باني الحياة المعاصرة**، يمدها بسلاح السلم والحرب والجد واللهو، وهو ملهم الشعراء والكتاب والأدباء، يمدهم بالغذاء الفكري ويدفعهم إلى الابتكار والإبداع، مع إدراك للحاضر ومشارفة للمستقبل، ومع تخطيط سليم لتحقيق ما يبغون وإدراك ما يأملون. بل إن العلم هو الذي يعلمنا كيف نعبد الله حق عبادته، في عالم يتراوح كالمجنون بين تقى الزاهد المتصوف وضلال الأحمق المفتون.

٢- **أن التطور هو سنة الله في الكون**، كي تمضي الحياة دائماً إلى الأفضل، ويشارك الفكر ما هو أرقى وأشرف. من أجل ذلك وهبنا الله العقل. الأفراد يولدون ويكبرون ويموتون. وقد ينتاب الفرد أو المجموعة أو الأمة بأسرها ما ينتاب الأفراد من عجز وهرم. ولكن الحياة بعامة، في هذا الكون الرحيب، سائرة

أبداً بفضل الله إلى الأحسن ... والتطور قائم منذ الأزل، وماضٍ إلى الأبد. كان في الماضي يجري بطيئاً وهو اليوم يغذّ السير بفضل العلم، ويفضي إلى التطوير أي عمل العقل في تسريع التطور. والتطوير إنما هو عمل بإرادة الله، ونجاحه يفضي إلى مزيد من الثقة بالنفس ومزيد من شكر الله.

وليس التطوير شغل العلماء والأدباء وحدهم، فكل مواطن مكلف بتطوير عمله إلى الأفضل: المزارع في حقله يطور سنابل القمح كي تجود بعطاء أغزر وأجود، والصانع في مصنعه يطور إنتاجه ليصير أفضل وأكثر، والأديب والكاتب والشاعر والناقد والمؤرخ يجددون ويبتكرون وينوعون. إن كل نجاح هو خطوة نحو نجاح أكبر.

٣- تطور العلوم والمعارف:

قدرنا أننا نعيش في عصر تتفجر فيه العلوم والمعارف بسرعة مذهلة. فما أن تبتدع عملية جديدة أو تعرض فكرة جديدة حتى يهرع التكنولوجيون إلى استغلالها بابتكار جديد. وليس هذا التفجر والتجديد قاصراً على مستويات التخصص بل هو يمتد إلى الحياة اليومية ويدهم الناس في بيوتهم ومطابخهم ومجالي جدهم ولهوهم. الحاسوب الذي كان في أوائل الستينيات حديث الجامعيين صار اليوم الشغل الشاغل في المصانع والمتاجر والمصارف والدوائر العامة والخاصة. وماذا نقول عن وسائل الطابعة والتصوير والاتصالات والطائرات؟ وماذا نقول عن عالمنا الواسع الذي غدا صغيراً نرى فيه على شاشة التلفاز فتيان الشرق والغرب في تعاملهم وجدهم ولهوهم. الأقمار الاصطناعية تعمل على توحيد العالم سلوكاً وعادات، شئنا أم أبينا.

هذا يضعنا أمام تحدٍّ لا بد من مواجهته. ومواجهته لا تتم بالتنكر للعمل والتكنولوجيا، بل بالتكيف معهما لأنهما أمر محتوم. وهذا التكيف يقتضي تغييراً

جذرياً في مفاهيم التعلم والتعليم وواجبات المعلم. فالتعلم عملية تمتد مدى الحياة. في الماضي قال فيلسوف: أنا أفكر، إذن أنا موجود. واليوم يقول كل فرد: أنا أتعلم، إذن أنا موجود. والتعليم لم يعد يقتصر على إنهاء مقرر محدد، إنما هو يعلم المرء كيف يتعلم وكيف يبقى على صلة بالمستجدات في مهنته وميدان عمله، كي يبقى مواكباً لتيار الحياة المتدفق. والمعلم لم يعد الموظف الذي تخرج وقد شدا من العلم شيئاً، فهو يعطيه للمتعلمين جيلاً وراء جيل. إنما هو متعلم تتزايد معلوماته يوماً بعد يوم، وتتسع خبراته – هو صاحب مهنة وصاحب رسالة حياته مكرسة لتبليغها.

أيها السادة: إذا كنا نخطط بجدّ لنكون في صفوف الأمم المتقدمة، فينبغي أن نتدارك ما فاتنا من عناصر الحياة المعاصرة أدباء وعلماء. إن تفجر المعرفة قد جعل أكثر المعارف التقليدية معلومات بدائية تجاوزها التطور العلمي، أو مغلوطة ثبت أنها ليست على صواب. ومن ثم فمبادئ العلوم الأساسية التي تعلمناها قد جعلها التفجر العلمي غير ذات موضوع. وما لم نبادر للتعلم سنبقى أكثر جهلاً مما يقدر المقدرون. إن من المعلومات المحدثة ما لابد لكل مثقف أن يلم به، علمياً كان أو أديباً أو لغوياً.

إن لم نسهم في تطوير الحياة المعاصرة، فلا أقل من أن نتفاعل معها على نحو يحفظ بقاءنا، وإن لم نفعل فأغلب ظني أن الحياة المعاصرة ستخلفنا وراءها وتمضي قدماً لا تنتظر.